سلسلة المقالات
الفقهية الأصولية
(٦٤)

فِقْهُ الأذَان
وَمَقَاصِدُهُ الشَّرْعِيَّةُ

وَقَّعَه
الدكتور عيد أبو السعود الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، وفقهه في الدين وفهّمه مقاصده وتمّم، وبصَّره بالتأويل وأكمل التعليل وخصّ وعمَّم، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبد اللَّه ورسوله ﷺ.

أمَّا بعد: فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ومن أعظم وأجلّ الرحمات التدبّر في آيات اللَّه وسنة رسوله المبيّنة لهذا الكتاب والمفصِّلة له، وذلك بالتعلّم والتعليم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فلمَّا كان الأَذان من أُوْلىٰ الشعائر التي تظهر للبشرية معالم الدين ومقاصده، حتىٰ كان الأذانُ والإقامة خمس مرات في اليوم والليلة، فكان من الأهمية بمكان النظر في مراد اللَّه من هذه الشعيرة، وعليه كتبت هذه المقالة، فأقول بحول اللَّه وقوَّته والذي لا تتمّ الصالحات إلَّا به سبحانه:

- **بيان بِنْيَة لفظة الأذان:**

قال الرَّاغب الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٤- ١٥):

«أذن: الأُذُنُ الجارحة، وشُبِّهَ به؛ من حيث الْحَلَقَةُ: أُذُنُ الْقِدْرِ وغيرها، ويستعار لمنْ كثُرَ استماعه وقوله لما يُسمع له، قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]؛ أي: استماعه لما يعود بخيركم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] إشارة إلىٰ جهلهم لا إلىٰ عدم سمعهم.

وأذِن: استمع، نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ٢]، ويستعمل ذلك في العلم الذي يتوصّل إليه بالسماع، نحو قوله: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، والإذن والأذان لما يُسمع ويعبَّر بذلك عن العلم؛ إذْ هو مَبْدَأُ كثير من العلم فينا، قال تعالىٰ: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ [التوبة: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأذنته بكذا وآذنته معنًىٰ [واحد].

والمُؤذِّن: كل من يُعْلم بشيْءٍ نداءً، قال: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، والأذينُ: المكان الذي يأتيه الأذان، والإذن في الشيْء: إعلام بإجازته والرّخصة فيه، نحو: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]؛ أي: بإرادته وأمره، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قيل معناه: بعلمه، لكن بين العلم والإذن فرقٌ؛ فإنّ الإِذْن أخصّ، ولا يكاد يُسْتعمل إلّا فيما فيه مشيئة به راضيًا منه الفعل أم لم يرض به، فإنَّ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، فمعلوم أنَّ فيه مشيئَته وأمْرَه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ففيه مشيئته من وجهٍ، وهو: أنَّه لا خلاف أنَّ اللَّه تعالىٰ أوْجَدَ في الإنسان قوة فيها إمكان قبول الضّربَ من جهة مَنْ يظلمه فيضرّه، ولم يجعله كالحجر الذي لا يوجعه الضّرب، ولا خلاف أنَّ إيجاد هذا الإمكان من فعل اللَّه، فمن هذا يصح أن يُقال: إنه بإذن اللَّه ومشيئته يلحق الضرر من جهة الظالم» اهـ.

وقال ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٣٧):

«أذن: وفيه: «**ما أذن اللَّه لشيْءٍ كإذنه لنبيّ يتغنَّىٰ بالقرآن**» [رواه البخاري في «صحيحه» (٥٠٢٤) ومسلم (٧٩٢)]؛ أي: ما استمع اللَّه لشيْءٍ كاستماعه لنبيٍّ يتغنَّىٰ بالقرآن؛ أي: يتلوه يجهر به.

وفيه ذكر الأذان وهو: الإعلام بالشيء، يُقال: آذان يُؤْذِن إيذانًا، وأذّن يُؤَذِّن تأذينًا، والمشدّد مَخْصُوص وفي الاستعمال بإعلام وقت الصلاة.

وفي حديث أنس: «**أنَّه قال له: ياذا الأُذُنيْن**».

قيل معناه: الحضّ علىٰ حُسْن الاستماع والوعي؛ لأنَّ السمع بحاسّة الأذن، ومن خلق اللَّه له أُذُنَيْن فأغفل الاستماع ولم يُحْسن الوعيّ لم يُعْذر». اهـ.

وقال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٨):

«الأذان: الإعلام لغة من غير خلاف» اهـ.

وقال ابن قدامة في: «المغني» (١/ ٥٤٣):

«الأذان: إعلام بوقت الصلاة، والأصل في الأذان الإعلام، قال اللَّه عَجَلَّ: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢]؛ أي: الإعلام، ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] أعلمتكم فاستوينا في العلم، قال الحارث بن جلزة:

آذنــتَــنَــا بــبَــيْــنِــهَــا أســمــاءُ ... رُبَّ ثــاوٍ يُــمَــلُّ مــنــه الــثَّــواءُ

أي: أعلمتنا.

والأذان الشرعيّ: وهو اللفظ المعلوم في أوقات الصلوات للإعلام بوقتها، وفيه فضل كثير وأجر عظيم؛ بدليل ما روىٰ أبو هريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**لو يعلم النَّاس ما في النداء والصف الأول، ثُمَّ لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه**» [رواه البخاري في «صحيحه» (٦١٥) ومسلم (٤٣٧)].

وقال أبو سعيد الخدري: «إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة؛ فارفع صوتك بالنداء، فإنَّه لا يسمع صوت المؤذن جنّ ولا إنس ولا شيء إلَّا شهد له يوم القيامة».

وقال أبو سعيد: سمعته من رسول اللَّه ﷺ أجرهما البخاري [حديث (٦٠٩)]، وعن معاوية قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**المؤذنون أطول**

النَّاس أعناقًا يوم القيامة» أخرج مسلم [في «صحيحه» (٣٨٧)]. ». اهـ.

• صفة المقالة وبيان مقصودها:

قلت: من المعلوم من الدين بالضرورة ألفاظ الأذان والإقامة ومعرفة ظاهرها ومعانيها جملة، ولا خلاف في ذلك، وقد تكلم عامة الفقهاء في المراد الشرعي بما دوِّن في دواوين الفقه بمذاهبه الفقهية، وكتب الفقه المقارن، والأمر في ذلك بيِّن وواضح.

وإنَّما كتبت هذه المقالة لبيان المقاصد الشرعية العقدية، لا ما تكلم فيه الفقهاء؛ إذ ليس هنالك جديد بعد ما قاله أئمة الدين وفقهاء الشريعة من هذه الأمة المحمّديَّة.

قال الشاطبيّ في كتابه: «الموافقات في أصول الشرعية» (١/ ٤١- ٤٤) المقدمة التاسعة:

«كل علم شرعيٍّ فطلب الشارع له إنَّما يكون حيث هو وسيلة إلىٰ التعبّد به للَّه تعالىٰ، لا من جهة أخرىٰ، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرىٰ فبالتّبع والقصد الثاني، لا بالقصد الأول، والدليل علىٰ ذلك أمور:

أحدها: أنَّ كلّ علم لا يفيد عملًا، فليس في الشرع ما يدلُّ علىٰ استحسانه، ولو كان له غاية أخرىٰ شرعية لكان مُسْتحسنًا شرعًا، ولو كان مستحسنًا شرعًا لبحث عنه الأوّلون من الصحابة والتابعين، وذلك غير موجود، فما يلزم عنه كذلك.

والثاني: أنَّ الشرع إنَّما جاء بالتَّعبّد وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود: ١، ٢] الآيات، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يسوّون به غيره في العبادة، فذمّهم علىٰ ذلك وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ٢]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢، ٣] الآية، وأشباه ذلك من الآيات التي لا تكاد تُحصىٰ.

كلها دالٌّ علىٰ أنَّ المقصود: التعبد للَّه، وإنَّما أوتوا بأدلة التوحيد ليتوجهوا إلىٰ المعبود بحقّ وحده سبحانه لا شريك به، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، ومثله سائر المواضع التي نصَّ فيها علىٰ كلمة التوحيد، لابدّ أعقب بطلب التعبد للَّه وحده، أو جعل مقدمة لها، بل أدلّة التوحيد هكذا جرىٰ مساق القرآن فيها ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ [طه: ٣] إلَّا كذا، وهو واضح في أنَّ التعبّد للَّه هو المقصود من العلم، والآيات في هذا المعنىٰ لا تُحْصَىٰ.

والثالث: ما جاء من الأدلة الدالة علىٰ أنَّ روح العلم هو العمل، وإلَّا فالعلم عارية وغير منتفع به، فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، قال قتادة: يعني لذو عمل بما علمناه وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وروي عن أبي جعفر بن محمد بن علي، في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ

﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩٤] قال: قوم وصفوا الحقّ والعدل بألسنتهم وخالفوه إلىٰ غيره.

وقال سفيان الثوري:

«إِنَّما يُتعلَّم العلم ليتقَىٰ به اللَّه، وإِنَّما فضل العلم علىٰ غيره لأنّه يُتّقىٰ اللَّه به».

وعن أبي الدرداء قال:

«إنَما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: أعلمت أم جهلت؟ فأقول: علمتُ، فلا تبقىٰ آية في كتاب اللَّه آمرة أو زاجرة إلَّا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة هل ائتمرت؟ والزَّاجرة هل ازدجرت؟ فأعوذ باللَّه من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع».

وقالت الحكماء:

«من حجب اللَّهُ عنه العلم عذّبه علىٰ الجهل، وأشدّ منه عذابًا من أقبل عليه العلم فأدْبر عنه، ومن أهدىٰ اللَّه إليه علمًا فلم يعمل به».

وقال معاذ بن جبل:

«اعملوا ما شئتم أن تعملوا، فلن يأجركم اللَّه بعلمه حتىٰ تعملوا».

وقال الحسن البصري:

«اعتبروا النَّاس بأعمالهم، ودعوا أقوالهم؛ فإنَّ اللَّه لم يدع قولًا إلَّا جعل عليه دليلًا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولًا حسنًا فرويدًا بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنِعْمَ ونُعمةُ عين».

وقال ابن مسعود:

«إنَّ النَّاسَ أحسنوا القول كلهم، فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظّه، ومن خالف فعله قوله فإنّما يوبّخ نفسه».

والأدلة علىٰ هذا المعنىٰ أكثر من أن تُحْصَىٰ، وكلّ ذلك يحقق: أنَّ العلم

وسيلة من الوسائل، ليس مقصودًا في نفسه من حيث النَّظر الشرعيِّ، وإنَّما هو وسيلة إلىٰ العمل، وكلّ ما ورد في فضل العلم إنَّما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به». اهـ.

قلت: فهذا هو المقصد الكليُّ الشرعي من دين اللَّه في كل مسألة من مسائله كما قرر إمام من أئمة المقاصد الشرعية، وقد وفَّىٰ البيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه كلّه وهو «الموافقات في أصول الشريعة».

وعلىٰ غرار ذلك أقول:

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (٢/ ٩٢) في أوّل كتاب الأذان:

«الأذان لغةً: الإعلام، قال تعالىٰ: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٣]، واشتقاقه من الأذن -بفتحتين- وهو الاستماع.

وشرعًا: الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة».

قال القرطبيّ وغيره:

«الأذان علىٰ قلة ألفاظه مشتمل علىٰ مسائل العقيدة؛ لأنه بدأ بالأكبرية، وهي يتضمن وجود اللَّه وكماله، ثُمَّ ثنَّىٰ بالتوحيد ونفي الشِّرك، ثُمَّ بإثبات الرسالة لمحمد ﷺ، ثُمَّ دعا إلىٰ الطاعة المخصوصة عقب الشهادة بالرسالة؛ لأنَّها لا تعرف إلَّا من جهة الرسول، ثُمَّ دعا إلىٰ الفلاح وهو البقاء الدائم، وفيه الإشارة إلىٰ المعاد، ثُمَّ أعاد ما أعاد توكيدًا.

ويحصل من الأذان الإعلام بدخول الوقت، والدعاء إلىٰ الجماعة، وإظهار شعائر الإسلام.

والحكمة في اختيار القول له دون الفعل: سهولة القول وتيسُّره لكل أحد في كل زمان ومكان». اهـ.

وقال النووي في: «المجموع بشرح المهذّب» (٣/ ٨١- ٨٢) باب الأذان:

«قال الأزهري: يقال: أذّن المؤذّن تأذينًا وأذانًا؛ أي: أعلم النَّاس بوقت الصلاة، فوضع الاسم موضع المصدر، وأصله من الأُذُن؛ كأنه يلقي في آذان النَّاس بصوته ما يدعوهم إلىٰ الصلاة».

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اعلم أنَّ الأذان كلام جامع لعقيدة الإيمان، مشتمل علىٰ نوعه من العقليَّات والسمعيات، فأوله: إثبات الذات وما يستحقّه من الكمال والتنزيه عن أضدادها، وذلك بقوله: «اللَّه أكبر»، وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة علىٰ ما ذكرناه، ثُمَّ صرح بإثبات الوحدانية ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه ﷻ، وهذه عمدة البيان والتوحيد المقدمة علىٰ كل وظائف الدين، ثُمَّ صرَّح بإثبات النبوّة والشهادة بالرسالة لنبيِّنا ﷺ، وهذه قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية؛ وموضعها بعد التوحيد لأنها من باب الأفعال، وتلك المقدمات من باب الواجبات، ثُمَّ دعا إلىٰ ما دعاهم إليه من العبادات، فدعا إلىٰ الصلاة وجعلها عقب إثبات النبوّة؛ لأنَّ معرفة وجوبها من جهة النَّبِيّ ﷺ، لا من جهة العقل، ثُمَّ دعا إلىٰ الفلاح وهو الفوز والبقاء في النعيم المقيم، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء، وهي آخر تراجم عقائد الإسلام، ثُمَّ كرَّر ذلك بإقامة الصلاة للإعلام بالشروع فيها، وهو متضمن لتأكيد الإيمان وتكرار ذكره عند الشروع في العبادة بالقلب واللسان، وليدخل المصِّلي فيها علىٰ بيّنة من أمره وبصيرة من إيمانه، ويستشعر عظيم ما دخل فيه وعظمة حق من يعبده وجزيل ثوابه.

هذا آخر كلام القاضي، وهو من النَّفائس الجليلة وباللَّه التوفيق». اهـ.

قلت: أمَّا التكبير في بداية الأذان: فهو علىٰ ظاهره الذي أجمع عليه الصحابة ومن بعدهم سلفًا وخلفًا: أنَّ اللفظ علىٰ ظاهره ما لم يصرفه صارف إلىٰ الباطن،

وهذا الذي ذكره الشافعي في «الرسالة»، وعليه، فالمعنىٰ: اللَّه أكبر من كلّ شيْء، كليِّة مستمرة مضطردة لا تتخلف، والمراد أنَّ الأذان للإعلام بالصلاة، فلا يُشغل النَّاس بأي شيْءٍ يلهيهم ويشغلهم عن الصلاة، وذلك عام في كل الدنيا من الأهل والولد والعمل واللهو والشهوة والمال والهوىٰ والإحداث والبدع، فالتكبير تعظيم للصلاة، الذي أصله تعظيم المكلف للَّه في قلبه وعقله وفكره وروحه ونفسه، فهذا التكبير والتعظيم والتفخيم والتبجيل مقصوده الرفعة المطلقة لأمر اللَّه ورسوله وحدوده ونواهيه، بين الامتثال لأوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدود اللَّه؛ إذ القاعدة الكلية: «**العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني**»، والقاعدة المجمع عليها في مسائل العقيدة والتوحيد: «**الإيمان قول وعمل ونية واتباع السُّنَّة**» قول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، مع صحة المعتقد وخلوص القلب والنية للَّه وحده، وهذا مقصود التعظيم والتكبير، ومن التكبير: أنَّ كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلَّا رسول اللَّه ﷺ، فلا قول فوق قول اللَّه ورسوله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، فهذا التصور الصحيح لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة.

وعلىٰ غرار هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومثلها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، ويبرهنها ويعظمها آية النور: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فهذه الآيات الأربع بهن يُفهم ويُدرك ويُتصوَّر «**اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر**»، فتكبيرات أربع بآيات أربع، بفهم، ووعي، وإدراك، وتصور، رباعية مكتملة تحيابها القلوب والأرواح والأنفس والأجساد، وبذلك ينصلح

للخلق دينهم ودنياهم.

فيفسد ذلك كله وينقص التكبير والتعظيم والإجلال والرفعة والمهابة في القلوب بالأهواء والشهوات.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟! [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وحديث البخاري في «صحيحه» (١٤، ١٥) قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين**».

فهذا الحديث البيان النبويّ للتكبير.

ومن هنا أعاد التكبير في نهاية الأذان مع بدايته، ومثل ذلك في الإقامة ولذلك -ومن نفس التصور والعلّية- كان الذكر الأم في العيدين هو التكبير، فاللَّه أكبر اللَّه أكبر اللَّه أكبر لا إله إلَّا اللَّه، واللَّه أكبر اللَّه أكبر وللَّه الحمد.

فاللَّه أكبر حقًّا وصدقًا وقولًا ونطقًا وعدلًا وإحسانًا وإنصافًا وخلقًا وإيمانًا ويقينًا، فاللَّه أكبر من النفس، والهوىٰ، والضلالات، والابتداع، والمعاصي، والشرك، والنفاق، وكل ما حرّمه اللَّه ورسوله ﷺ.

• فإذا كان ذلك كذلك وتقرر عندك ما مضىٰ بدليله وتعليله، يعلم المؤمن التقيُّ الذي قام أمره علىٰ الرباعية السابقة آنفًا، فشهد الشهادتين صدقًا وقلبًا وفهمًا ونية وقولًا وعملًا، «أشهد أن لا إله إلَّا اللَّه، وأشهد أنَّ محمدًا رسول اللَّه».

ومن أجلِّ ما قرأت في معنىٰ: «كلمة الإخلاص» رسالة ابن رجب الحنبليّ الإمام فراجعها، وهو كتابه المسمَّىٰ: «**تحقيق كلمة الإخلاص**»، وقد نقلت منها في كتبي واستشهدت بها علىٰ كثير من الخير والفلاح، فأغنت عن الإعادة هنا.

• فلمَّا تجلَّت معاني التكبيرات، وبيان الشهادتين: أنَّه لا معبود بحق

إلَّا اللَّه، مع قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

فكان قوله: «**حيّ علي الصلاة حيّ علىٰ الفلاح**» كما ذكر القاضي عياض والقرطبي في معنىٰ الفلاح، ويبيّن ذلك المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله ﷻ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]، ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

● أمَّا «**حتىٰ علىٰ الصلاة**»، فهو أمر من اللَّه تعالىٰ لعباده بركن الإسلام الثاني بعد الشهادتين، فيما رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦) في «صحيحيهما» قال رسول اللَّه ﷺ: «**بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلَّا اللَّه وأنَّ محمدًا رسول اللَّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان**».

«**حيّ علىٰ الصلاة**»؛ يعني: هلمّوا وأقبلوا، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]. قاله الراغب في «المفردات» مادة «حيّ» (ص: ١٣٨- ١٣٩).

وقال النووي في: «شرح مسلم» (٤/ ٦٣) حديث (٣٧٩):

«قوله: «**حيَّ علىٰ الصلاة**» معناه: تعالوا إلىٰ الصلاة وأقبلوا إليها، ومعنىٰ: «**حيَّ علىٰ الفلاح**» هلمَّ إلىٰ الفوز والنجاة، وقيل: إلىٰ البقاء؛ أي: أقبلوا إلىٰ الجنَّة والفَلَحْ، بفتح الفاء واللام لغةً في الفلاح حكاهما الجوهريّ وغيره». اهـ.

قلت: فهذه هي المعاني الحقّة المتضمنة للمقصود الشرعيِّ للأذان، ومن يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه ربِّ العالمين.

كتبه

الباحث الشرعيّ الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال